## 6. فكرة عامة عن التجارة والصناعة والبناء في العصر المملوكي

**أهم الصناعات في مصر في عصر المماليك :**

**ونعود مرة أخري للدكتور محمود الحويري وكتابه الممتع مصر في العصور الوسطي حيث كتب ما يلي : ( وإلي جانب الزراعة اهتم سلاطين المماليك بالثروة الحيوانية فعملوا علي تحسين سلالتها وجلب الأنواع الممتازة لتربيتها والإكثار منها ، وفي عصر المماليك ارتقت الصناعة وأصبحت علي درجة كبيرة من الجودة والإتقان ، ومن أهم الصناعات في العصر المملوكي صناعة المنسوجات – – وبرع المصريون في الصناعات الجلدية – – والمصنوعات المعدنية ، وازدهرت صناعة الزجاج ، وكذلك صناعة الخزف وخضع الصناع وأصحاب الحرف في العصر المملوكي لنظام النقابات ، فكان أفراد كل حرفة يكونون نقابة خاصة بهم لها نظام ثابت يحدد عددهم ومعاملاتهم ، كما يكون لهم رئيس أو شيخ يرأسهم ويفض مشاكلهم ويرجعون إليه في كل ما يهم )[42] ،**

**الاهتمام بالتجارة :**

**( أما التجارة في عصر المماليك فقد لعبت الدور البارز كمصدر للثروة سواء كانت تجارة داخلية أو خارجية ، ولكن التجارة الخارجية ساهمت بالنصيب الأكبر في دخل دولة المماليك وثرائها )[43] وكان سلاطين المماليك يهتمون بالتعامل معاملة حسنة مع التجار الأجانب ومن أظرف الأمثلة علي ذلك أن السلطان المنصور قلاوون بعث إلي المسئول عن ميناء الإسكندرية رسالة يأمره فيها بتنمية تجارة الميناء ( ومعاملة التجار الواردين إليه بالعدل الذي كانوا ألفوه منه ، فإنهم هدايا البحور ، ودوالبة الثغور ، ومن ألسنتهم يطلع علي ما تجنه الصدور وإذا بذر لهم حب الإحسان نشروا له أجنحة مراكبهم كالطيور ، – – – وهيأت دولة المماليك وسائل الراحة لإقامة التجار الأوروبيين في مينائي الإسكندرية ودمياط فبنت الفنادق ووضعتها تحت تصرف هؤلاء التجار حتى يعيشوا وفق النمط الذي اعتادوه في بلادهم )[44]**

**مكونات المنازل ومحتوياتها مؤشر للصناعة والتجارة في ذلك الوقت**

**ولنوضح روعة المنتجات التي كان يتم تصنيعها ومدي التقدم في هذا المجال سنورد هنا وصف مؤرخ بريطاني لأحد المنازل كنموذج للمنازل التي كان يدل علي فكر عالي وهندسة معمارية راقية ، فيقول**

---

[42] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة 290

[43] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة 290

[44] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة 291 ، 292

ستانلي لين بول[45] واصفاً تلك المنازل التي صممها المهندسون المصريون لتوفر الراحة والهدوء والخصوصية : (---- وفي داخل الدار ممر ينعطف فجأة بعد خطوة أو خطوتين ، ويحول دون مشاهدة أي شئ في الداخل وأنت بالباب الخارجي ، وفي نهاية هذا الممر نجد أنفسنا أمام فناء متسع به بئر المياه – في أحد الأركان الظليلة ، وفي أغلب الأحيان نجد شجرة عتيقة للجميز ، وفي هذا المكان لا تتلمس دليلاً علي أن ثمة حياة ، فالأبواب مغلقة في إحكام إمعاناً في الغيرة والحذر ،

والنوافذ تحجبها تلك الستائر الخشبية البديعة التي تروق عين الفنان ، وتغري الكثير من الغواة باقتنائها ، والفناء الداخلي لا يقل في هدوئه وسكونه عن تلك الأجزاء التي تطل علي الشارع نفسه ، وهنا لا نري أية علامة لحياة هؤلاء السكان المنزلية ، لأن غرف النساء منعزلة تماماً عن هذا الفناء ولا تطل عليه ، إنما تطل عليه غرف الرجال وحجرات الاستقبال وما إلي ذلك والواقع أن هذا المكان الهادئ منعش جداً حينما يأوي إليه المرء بعد أن قاسي الكثير من الجلبة والصخب في الشارع

حينئذ يشعر المرء أن المهندسين المصريين قد أدركوا لحسن الحظ ما تقتضيه الحياة في الشرق ، فهم يجعلون الشوارع ضيقة ، ويظللونها بالمشربيات البارزة حتي لا تصل أشعة الشمس المحرقة إليها ، كما هو الحال في شوارع المدن الأوروبية الواسعة ، حيث تستطيع الشمس أن تنفذ إلي هذه الدور ، ولكنهم يجعلون المنازل نفسها فسيحة الأرجاء ، ويحيطونها بالحدائق والأفنية ، لأن حرارة الشمس لا تطاق في الغرف في أثناء الصيف ما لم يتخللها الهواء ، إن فن المهندس الشرقي يتلخص في أنه يبني لك منزلك بحيث لا تستطيع أن تري شيئاً من خلال نوافذ جارك ، وبحيث لا يستطيع جارك في الوقت نفسه أن يري شيئاً مما يدور خلف نوافذ منزلك والطريق الواضح للوصول إلي هذه الغاية ، هو أن تكون الحجرات بحيث يحيط بها فناء واسع فسيح الأرجاء ، وأن تكون النوافذ محتجبة بالستائر الخشبية المتشعبة التي تسمح لقبس ضئيل من النور أن يدخل ، وتدع قدراً وفيراً من الهواء يتخلل أجزاءها كما يسمح بالنظر من خلال هذه النوافذ دون أن يري الغرباء من المارة ما بداخلها ، والستائر الخشبية والفناء المنعزل من شأنهما أن يعملا علي تحقيق ذلك النظام الذي يحتمه الإسلام بفصل الجنسين بعضهما عن بعض ،

والحجرات السفلي التي تواجه أبوابها الفناء مباشرة ، وهي تلك الحجرات التي يستطيع الشخص أن يمشي فيها آمناً ولا يخشي أن يري وجها لأية إمرأة في البيت ،وإلي إحدي تلك الحجرات السفلي يتقدمنا مضيفنا ، طالباً إلينا في أدب جم أن نوليه الشرف بأن نظهر كما لو كنا في بيوتنا الخاصة ، إنها حجرة الاستقبال ، أو المنظرة ، وهي بمثابة أنموذج لما ينبغي أن تكون عليه الغرف في العادة ، والجزء الذي ندخل منه في الحجرة منخفض عن بقية الأجزاء ، وإذا كان المنزل أنيقاً حقاً فإننا نجد هذا الجزء

---

[45] ولد المؤرخ والرحالة البريطاني ستانلي لينبول في مدينة لندن في الثامن عشر من شهر ديسمبر سنة 1854 ودرس في جامعة أكسفورد وجامعة دبلن وبدأ حياته العملية كمؤرخ وباحث في الآثار ، وقد زار مصر أكثر من مرة وعمل بها وله مؤلفات عديدة تتناول تاريخها وتوج في سنة 1902 سلسلة مؤلفاته في تاريخ مصر بكتاب ( سيرة القاهرة ) أو تاريخ القاهرة The Story of Cairo والذي قام بترجمته كل من د حسن إبراهيم حسن و د علي إبراهيم حسن ود إدوار حليم وفي هذا الكتاب وصف رائع للعاصمة المصرية

المنخفض مغطي بالرخام المصنوع من الفسيفساء ، وفي وسطه نافورة تعمل علي تبريد الهواء ، وبإزاء الباب نجد قطعة مسطحة من الرخام محملة علي أقواس ، حيث توضع قلال الماء وأقداح القهوة وأدوات غسيل الأيدي ونحن نخلع أحذيتنا الخارجية ونتركها علي الجزء الرخامي من الحجرة قبل أن نطأ ذلك الجزء المغطي بالبسط ، وهنالك تجد الأرض مغطاة ببسط من الصوف الخشن ، كما نجد بمحاذاة ثلاثة من أضلاع الحجرة ديواناً منخفضاً وفي الحائط الخلفي مشربية بداخلها وسائد مريحة ، وبأعلاها نحو من ستة من النوافذ مكونة من قطع صغيرة من الزجاج الملون ، ومن حولها إطار من الطلاء ، فتكون بذلك علي شكل زهرة ، وهذه النوافذ من شأنها أن تسمح لنصف الهواء فقط بأن يمر من خلالها ، أما الجانبان الآخران فمطليان بالجير ، وليس بهما خشب أو قرميد ، بل أعدت بها بضعة أصونة خشبية منخفضة لها أبواب صغيرة تفتح بطريقة هندسية معقدة ، وعلي جانبي كل صوان من هذه الأصونة كوة صغيرة مقوسة ، وفي أعلاه رف وضعت عليه الأطباق المزخرفة والأوعية وغيرها من أدوات الزينة المنقوشة ، أما سقف الحجرة فيتكون من ألواح مثبتة في جذوع ضخمة ، ولونه في العادة أحمر قاتم ، غير أنه في البيوت القديمة نجد في السقف غالباً بعض النقوش الجميلة ، ولا نجد في الحجرة مناضد أو كراسي أو مدفئات أو أي شئ من الأثاث الذي يعرفه الأوروبي ، وحينما يحين وقت الطعام ، يحضر خوان صغير مستدير ، وإذا كان الجو بارداً قدم موقد أوقد فيه فحم الخشب ، وبدلاً من الكراسي نجد القاهري يضع رجليه من تحته علي الديوان ويجلس القرفصاء ، تلك الجلسة التي إذا فكر الأوروبي أن يجلس مثلها أصيب بتشنج في الأعصاب )[46]، ومما سبق يتضح مدي إعجاب المؤرخ البريطاني بالتصميم الهندسي المميز لهذه المنازل وتجدر الإشارة إلي أن محتويات هذه المنازل من مفروشات ومصنوعات خشبية وزجاج وأواني وأوعية وخزف مصنوعة في مصر أو ناتجة عن ازدهار حركة التجارة وكذلك فإن هذه المنازل ليست فقط تحف فنية وهندسية مدهشة ولكنها مكيفة الهواء أيضاً بأسلوب ذلك العصر حيث تتكون من جدران سميكة تعزل الحرارة وبها وسائل لتوزيع الهواء بأسلوب معين وفسقيات فوقها شخشيخة وحولها ملاقف فيرتفع الهواء الساخن لأعلي ويهبط الهواء البارد لأسفل فيجعلك تشعر بوجود تكييف للهواء

<u>فن نحت الخشب :</u>

ويضيف ستانلي لين بول في موضع آخر من كتابه فيقول (، إن فن نحت الخشب لم يزدهر ولم يبلغ أقصي مداه إلا أثناء حكم السلاطين المماليك وعلي الأخص حكم الملك الناصر فقد كانت الأخشاب ذات الألوان المختلفة تستخدم لإحداث تأثير ملطف كما حل الترصيع محل النحت في الكتل الصلبة وأحياناً

---

[46] نقلا عن كتاب (سيرة القاهرة) تأليف المؤرخ البريطاني ( ستانلي لين بول) ترجمة د حسن ابراهيم حسن ، و د علي ابراهيم حسن ، و د إداور حليم –مكتبة الأسرة 1997– الهيئة المصرية العامة للكتاب

كنا نجد كل صفيحة صغيرة منحوته توضع في إطار من الأبنوس حافل بدوره هو الآخر بالنحت والنقوش ، وكثيراً ما كان يتكون من إطارين أو ثلاثة إطارات متميزة الواحد منها خارج الآخر ، ومن الغريب أن الرسم الداخلي لم يكن يتكرر في صفيحتين ، علي الرغم من مئات الصفائح التي كانت توجد هناك ، ولا يخفي علينا مقدار الجهد الذي كان يتكلفه نحت تلك الصفائح ووضعها ، بعد نقشها إلي جانب بعضها البعض ، وهناك نماذج كثيرة توجد في المساجد ، كما أن هناك نماذج أرق منها تتمثل في الأبواب الخشبية المرصعة بالعاج في كنائس بابليون القبطية ، والتي أغلب الظن أن المسلمين أخذوا منها فنهم ، إلا أن أروع نماذج لنحت المماليك توجد الآن في لندن ، ذلك أن عدداً كبيراً من تلك النماذج نقل أثناء حكم الخديوي اسماعيل ، وحتي قبل ذلك ، إلي المتحف الموجود جنوب كنسنجتون فهناك نستطيع أن ندرس علي مهل بعض النقوش العربية الفاخرة – والتي ليست جد متقنة في الوقت نفسه – المأخوذة من المنبر الذي بناه السلطان لاجين في مسجد ابن طولون عام 1296م ، وهناك قطع أخري منحوتة من جامع المرداني 1339م موضوعة في شكل غير مقبول فوق منضدة فرنسية ، ومجموعة ثالثة لعلها من منبر جامع قوصون ، موضوعة كذلك في إطار حديث ولو أن النحت العربي مازال محتفظاً برونقه وجماله ، وأخيراً نجد منبراً كاملاً يحمل اسم قايتباي ولكن لا يعرف من أي مسجد أخذ ، وهذه الأشياء في مجموعها تكون معرضاً جميلاً لنقش الخشب في أحسن عصوره ومهما يكن من شئ ، فإن المجموعات فيها بعض الاختلاف ، وأحياناً شئ من التدهور ، وأن دراسة فاحصة للرسوم سوف ترينا أن الفن وصل إلي أقصي مداه في نقوش جامع المرداني ، أي بعد حكم الناصر مباشرةً )[47]

<u>ستانلي لين بول يصف القاهرة بشكل عام من أعلي القلعة :</u>

يقول المؤرخ البريطاني ما ملخصه : ( – – – ولكنك إذا وقفت علي أسوار هذا الحصن لم تعد تري أي اختلاف أو تناقض ، وإنما تبصر من حولك كل ما هو شرقي صميم ، -- هناك تجد الكثير من القباب والمآذن والأديار ذات القباب ، والمنازل المنبسطة الأسقف ، منها الأصفر والأبيض ، ومنها الأسمر ، كذلك بقعاً خضراء هنا وهناك ، يتخللها شجر الجميز العتيق وفي الجهة المقابلة تشاهد صفوف من النخيل ، وأخدوداً من الفضة حيث يجري ذلك النهر الطويل الصافي حالماً بين ضفتيه القاتمتين ، وهناك في الأفق حيث تأخذ الشمس في المغيب فتترك ورائها لونا أحمر قانياً ، هناك تبصر الأهرام الخالدة ، كذلك تشاهد المآذن الدقيقة وقد ارتفعت كثيرا عن مستوي القباب ، وسطوح المباني الأخري ، حيث تكون لنفسها عالما خاصاً بها ، فيه الكثير من السحر والجمال ، إن كل واحدة من هذه المآذن لها قصة جديرة بأن ترويها لنا ، قصة انتصار أو انكسار ، أو قصة مجاعة أو غزو ، أو قصة ثقافة وزهد

[47] نقلاً عن كتاب سيرة القاهرة لستانلي لينبول ، ترجمة د حسن إبراهيم حسن ، د علي إبراهيم حسن ، إداور حليم ، طبعة مكتبة الأسرة 1997 ، الهيئة المصرية العامة للكتاب

، وإذا ما اتجهت بنظرك شمالاً ، شاهدت مآذن جامع المؤيد البديعة من فوق باب زويلة ، إن هذه المآذن لتذكرنا بمئات الأحداث والقصص ، ووراء هذه المآذن ترتفع مآذن حي النحاسين وهي أنموذج كامل للفن الإسلامي ، ووراء هذه المآذن أيضاً نشاهد بعض الأبراج ، إنها أبراج جامع الحاكم ، وأمام هذه الأبراج يقع جامع السلطان حسن ، أكبر وأعظم المساجد التي ترجع إلي عهد المماليك ، وإلي اليسار قليلاً يري الناظر بروج وأروقة جامع ابن طولون الذي يطل علي التلال التي تحيط به - - - ويستمر المؤرخ البريطاني في الوصف منبهراً بكل ما يراه من عراقة إلي أن يقول : وهنا نعرف القاهرة لأول مرة علي أنها مدينة من مدن العصور الوسطي ، بل أكثر من هذا نعرفها كمدينة لها تراثها المجيد منذ فجر التاريخ ، فنحن حين نطل من أعلي أسوار القلعة ، ندرك أن هناك محيطات أخري غير تلك التي نعهدها زاخرة بالمياه ، وأن حاضرة مصر لا يمكن أن يكون لها حدود أنسب من الصحاري التي هي بمثابة الدرع الواقي لها ، والأهرام التي تعلن في جلاء ووضوح عن أعمالها المجيدة التي تمت منذ أقدم عصور التاريخ ولقد قال الإسرائيلي الحكيم : من لم يشاهد القاهرة لم يشاهد الدنيا فأرضها تبر . ونيلها سحر ، ونساؤها حور الجنة في بريق عيونهن ، ودورها قصور ، ونسيمها عليل ، عطر كعود الند ينعش القلب ، وكيف لا تكون القاهرة كذلك وهي أم الدنيا )[48] ويذكرنا هذا الكلام بما قاله ابن خلدون : رأيت حضرة الدنيا ووصف ابن بطوطة عندما قال : هي أم البلاد

ويأخذنا الحديث عن اهتمام المماليك بالبناء فنستعرض معاً ما كتبه المؤرخون عن بعض الشخصيات المملوكية علي اختلاف عصورهم من بحرية وبرجية وعثمانية ولنخصص إن شاء الله الفصل القادم عن هذا الموضوع

[48] مقتطفات من صفحة 43-46 من كتاب سيرة القاهرة – تأليف ستانلي لينبول – الهيئة المصرية العامة للكتاب-مكتبة الأسرة -1997